ردة... ولا أبا بكر لها

بقلم

أبو الحسن علي الحسني الندوي

الناشر

مكتبة السداوي
للنشر والتوزيع
القاهرة
٦٥٩١٧٧

المكتبة المكية
حي الهجرة - مكة المكرمة

الطبعة الثانية

١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

ردة جديدة

شهد التاريخ الاسلامي حوادث ردة عديدة ، ابرزها وأعنفها ردة القبائل العربية على اثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، الثورة الكبيرة التي وأدها أبو بكر الصديق في مهدها بايمانه وعزمه الذي ليس له مثيل في التاريخ ، ومنها حركة التنصر التي انتشرت في اسبانيا على اثر جلاء المسلمين ، والتي ظهرت في بعض الاقطار التي استولت عليها الدول الغربية المسيحية ونشط فيها القسس و« الارساليات » ومنها قضايا شاذة من ارتداد بعض ضعاف العقول وصغار النفوس من المسلمين عن دين الاسلام واعتناقهم للبرهمية أو الآرية في الهند ، ولكنها حوادث نادرة جداً ، وفي الحقيقة ان تاريخ المسلمين لا يعرف الردة العامة ـ اذا استثنينا اسبانيا البائسة إذا صح أن نسميها ردة ـ كما اعترف به مؤرخو الديانات .

وتتسم هذه الحوادث كلها بسمتين ، اولاهما المقت الشديد من المسلمين ، والثانية الانفصال عن المجتمع الاسلامي ،

فكان كل من يرتد عن دينه يستهدف لسخط المسلمين الشديد وينفصل عن المجتمع الاسلامي الذي يعيش فيه بطبيعة الحال وتنقطع بمجرد ارتداده بينه وبين ذوي قرابته الاواصر والارحام ، وكانت الردة انتقالا من مجتمع الى مجتمع ، ومن حياة الى حياة ، وكانت الاسرة تقاطعه وتهجره وتقصيه ، فلا مصاهرة ، ولا زواج ، ولا اخاء ولا توارث وكانت حركات الردة تثير روح المقاومة في المسلمين والمقارنة بين الديانات ، والدفاع عن الإسلام ، وكل قطر من أقطار المسلمين ظهرت فيه حوادث الردة تحمس علماء المسلمين ودعاة الإسلام وحملة الأقلام فيه للرد عليها وتتبع أسبابها ، وعرض محاسن الإسلام ومزاياه ، واجتاحت المجتمع الإسلامي موجة عنيفة من السخط والاستنكار والقلق ، وكانت هذه الحوادث المقيمة المقعدة للمسلمين وكانت الحديث العام والشغل الشاغل للعامة فضلاً عن الخاصة وأهل الغيرة الدينية ، هذا ما اتسمت به حوادث الردة ، على ندرتها وشذوذها وعلى عدم تأثيرها في الحياة .

ولكن جرب العالم الاسلامي في العهد الاخير ردة اكتسحت عالم الاسلام من اقصاه الى أقصاه ونبذت جميع حركات الردة التي سبقتها في العنف وفي العموم ، وفي العمق وفي القوة، ولم يخل منها قطر ، وقلما خلت منها اسرة من أسر

المسلمين ، هي ردة تلت غزو اوروبا للشرق الاسلامي ، الغزو السياسي والثقافي ، وهي اعظم ردة ظهرت في عالم الاسلام وفي تاريخ الاسلام ، منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الى يوم الناس هذا .

ماذا تعني الردة في عرف الاسلام وفي مصطلح الشريعة الاسلامية ؟ هي ابدال دين بدين ، وعقيدة بعقيدة ، وانكار ما جاء به الرسول وتواتر عنه وثبت بالضرورة من دين الاسلام .

وماذا كان يفعل المرتد ؟ ينكر الرسالة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وينتقل الى المسيحية أو اليهودية أو البرهمية ، أو يلحد في الدين وينكر الرسالات والوحي والمعاد ، هذا ما كان يعرفه العالم القديم او المجتمع القديم من معاني الردة ، وكان كل من يرتد عن دينه يدخل الكنيسة اذا تنصر أو يدخل الهيكل أو معبد الاصنام اذا اعتنق البرهمية مثلا فيعرف ذلك الجميع ، ويصبح شامة بين الناس يشار اليه بالبنان ، ويقطع منه المسلمون الامل ، ولا يكون ارتداده ـ في غالب الاحوال ـ سراً من الاسرار .

« الفلسفة التي حملتها اوروبا الى الشرق »

حملت اوروبا الى الشرق الفلسفات التي قامت على انكار اسس الدين وانكار القوة المصرفة لهذا العالم ، القوة الواعية التي اخرجت هذا العالم من العدم الى الوجود وبيدها زمام الكون (الاله ، الخلق والامر) وعلى انكار عالم الغيب والوحي والنبوات ، وانكار الشرائع السماوية ، وانكار القيم الروحية والخلقية ، منها ما تبحث في علم الحياة والنشوة والارتقاء ، ومنها ما تتصل بالاخلاق ، ومنها ما تدور حول علم النفس ، ومنها ما موضوعها الاقتصاد والسياسة ، ومهما اختلفت هذه الفلسفات في ألوانها وأهدافها وأسسها ، فإنها جميعا تلتقي على النظرية المادية المحضة الى الانسان والى الكون والتعليل المادي لظواهرهما وافعالهما .

غزت هذه الفلسفات المجتمع الشرقي الاسلامي وتغلغلت في احشائه وكانت اعظم ديانة ظهرت بعد الاسلام في التاريخ ، اعظمها انتشارا واعمقها جذورا واقواها سيطرة على العقول والقلوب ، واقبل عليها زهرة البلاد الاسلامية وزبدتها عقلا وثقافة ، وساغتها وهضمتها ودانت بها كما يدين

المسلم بالاسلام والمسيحي بالمسيحية بكل معنى الكلمة ، فهي تستميت في سبيلها وتقدس شعارها وتجل قادتها ودعاتها وتدعو اليها في أدبها ومؤلفاتها ، وتحتقر كل ما يعارضها من الأديان والنظم والعقليات وتؤاخي كل من يدين بها ، فأفرادها أمة واحدة وأسرة واحدة ومعسكر واحد .

الديانة اللادينية

وما هي هذه الديانة وان أبى اصحابها أن يسموها ديانة ؟ انكار لفاطر الكون العليم الخبير الذي قدر فهدى ، وانكار للمعاد وحشر الاجساد ووجود الجنة والنار والثواب والعقاب ، وانكار النبوات والرسالات وانكار الشرائع السماوية والحدود الشرعية وانكار ان الرسول الاعظم هو الذي فرض الله طاعته على جميع الخلق وحصر الهداية والسعادة في اتباعه ، وان الاسلام هو الرسالة الاخيرة الخالدة المتكفلة لجميع السعادات الدنيوية والاخروية ونظام الحياة الامثل الافضل ، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره ولا يسعد العالم سواه أو انكار ان الدنيا خلقت للانسان وان الانسان خلق الله .

هذه ديانة الطبقة المثقفة الممتازة التي تملك زمام الحياة في اكثر البلدان الاسلامية ، وان لم تكن كلها طبقة واحدة في

الايمان بها والتحمس لها ، وفيها ولا شك مؤمنون بالله متدينون بالاسلام ، ولكن سمة هذه الطبقة التي تغلب عليها مع الاسف وديانة اكثر افرادها ورؤسائها هي الديانة المادية وفلسفة الحياة الغربية التي قامت على الالحاد .

انها ردة ، أعود فأقول : اكتسحت العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه وغزت الاسر والبيوتات ، والجامعات والكليات والثانويات والمؤسسات ، فما من اسرة مثقفة ـ الا من عصم ربك ـ الا وفيها من يدين بها أو يحبها أو يجلها واذا استنطقته أو خلوت به أو أثرته عرفت انه لا يؤمن بالله ، اولا يؤمن بالاخرة ، او لا يؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لا يؤمن بالقرآن كالكتاب المعجز الخالد ودستور الحياة ، وأفضلهم من يقول انه لا يفكر في مثل هذه المسائل ولا يهتم بها كبير اهتمام .

انها ردة ولكنها لم تلفت المسلمين ، ولم تشغل خاطرهم ، لان صاحبها لا يدخل كنيسة او هيكلاً ولا يعلن ردته وانتقاله من دين الى دين ، ولا تنتبه لها الاسرة فلا تقاطعه ولا تقصه بل يظل يعيش فيها ويتمتع بحقوقها وقد يسيطر عليها ، ولا ينتبه لها المجتمع فلا يحاسبه ولا يعاتبه ولا يفصله بل يظل يعيش فيه ويتمتع بحقوقه وقد يسيطر عليه .

قضية ولا أبا بكر لها .

إنها قضية العالم الاسلامي الكبرى ، انها مشكلة الامة الاسلامية الكبرى ، ردة تنتشر وتغزو المجتمع الاسلامي ثم لا ينتبه لها أحد ، ولا يفزع لها العلماء ورجال الدين ، لقد قالوا قديماً : « قضية ولا أبا حسن لها » وأقول : قضية ولا أبا بكر لها .

انها قضية لا تطلب حربا ولا تطلب تهييج الرأي العام ، ولا تطلب ثورة ، ولا تطلب عنفا ، بل ان العنف يضرها ويهيجها ، والاسلام لا يعرف محاكم التفتيش ولا يعرف الاضطهاد ، انها تطلب عزما وتطلب حكمة وتطلب صبرا واحتمالا وتطلب دراسة .

سر انتشار هذه الديانة

لماذا انتشرت هذه الديانة في الشرق الاسلامي ؟

لماذا استطاعت ان تغزو المسلمين في عقر دارهم ؟

ولماذا استطاعت ان تسيطر على العقول والنفوس هذه السيطرة القوية ؟ ان كل ذلك يطلب التفكير العميق

الدقيق . . والدراسة الواسعة .

ضعف العالم الاسلامي في القرن التاسع عشر المسيحي في الدعـوة والعقيدة والعقلية والعلـم وبـدا عليه الاعياء والشيخوخة ، والإسلام لا يعـرف الشيخوخة والهرم ، انـه جديد كالشمس وقديم كالشـمس وشـاب كالشـمس ولـكن المسلمين هم الذين شاخوا وضعفوا ، فلا سعة في العلم ولا ابتكار في التفـكير والانتـاج ، ولا عبقـرية في العقـل ، ولا حماسة في الدعوة ، ولا عرضاً جميلاً ومؤثراً للإسـلام ومـزاياه ورسالته إلا النادر القليل .

ولا صلة بالشباب المثقف والتأثير في عقليتهم وهم أمة الغد والجيل المرتجى ، ولا محاولـة لاقناعهـم بأن الاسـلام هو دين الانسانية والرسالة الخالدة ، وان القرآن هو الكتـاب المعجز الخالد الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفذ ذخائره ولا تبلى جدته ، وان الرسول هو المعجزة الكبرى ورسول الاجيال كلها وامام العهود كلها ، وان الشريعة الاسـلامية هي الآية في التشريع وهي الصالحة لمسايرة الحياة وقضاء مآربها الصالحة والاشراف عليها ، وان الايمان والعقيدة والاخلاق والقيم الـروحية هي اسـاس المدنية الفاضلـة والمجتمـع الـكريم ، وان الحضـارة الجديدة لا تملك الا الوسائل والآلات ، وان تعـاليم الانبياء

هي مصدر العقيدة والخلق والغايات ، ولا مطمع في المدنية الصالحة المتزنة الا بالجمع بين الوسائل والغايات .

وفي هذه الساعة هجمت اوروبا بفلسفاتها التي تعب في تدوينها وتهذيبها كبار الفلاسفة ونوابغ العصر ، وصبغوها بصبغة علمية فلسفية يخيل الى الناظر انها غاية ما يصل اليها التفكير الانساني ومنتهى الدراسات والاختيارات ونتاج العقول البشرية وعصارة التأملات وكان فيها ما يقوم على الاختبار والمشاهدة وتصدقه التجربة ، وما يقوم على الافتراض والتحكم والتخييل والتوهم ، وفيها الحق والباطل والعلم والجهل والحقائق الراهنة والتخيلات الشعرية ، وليس الشعر محصورا في النظم والقوافي بل هو في الفلسفة والعلم ايضا .

ووردت هذه الفلسفات مع الفاتحين الاوروبيين فخضعت لها العقول والنفوس البشرية وأذعنت لها وقبلتها الطبقة المثقفة في الشرق وفيها من يفهمها وهم القلة القليلة وفيها من لا يفهمها وهم الكثرة الكاثرة ولكن كل مؤمن بها مسحور بسحرها يرى الظرفة والكياسة في اعتقادها ويرى ذلك شعار المثقفين الاحرار .

وهكذا انتشر الالحاد والارتداد في الاوساط الاسلامية من

غير ان يبثه له الآباء والاساتذة المربون واهل الغيرة ولم يسجدوا لصنم ولم يذبحوا لطاغوت ، وكان ذلك دليل الارتداد والكفر والزندقة في العهد القديم .

نفاق و إلحاد

وكان المارقون القدماء يخرجون من المجتمع الاسلامي وينضمون الى مجتمع الديانة التي يدينون بها جديدا ويعلنون عقيدتهم وتحولهم بصراحة وشجاعة ، ويحتملون كل ما يخسرونه في سبيل عقيدتهم الجديدة ولا يلحون على البقاء في المجتمع القديم ليحافظوا على ما كانوا يتمتعون به من حقوق وحظوظ .

أما الذي يقطع صلته عن دين الاسلام اليوم فلا يريد ان يقطع صلته عن المجتمع الاسلامي ، مع ان المجتمع الاسلامي هو المجتمع البشري الوحيد الذي يقوم على العقيدة ولا يتحقق هذا المجتمع من غير عقيدة ، ويلحون على ان يعيشوا في مراكزهم متمتعين بثقة هذا المجتمع ، متمتعين بالحقوق التي يخولها الاسلام ، ان هذا وضع شاذ لم يعرفه التاريخ الاسلامي .

العصبيات الجاهلية ودياناتها .

وهنالك نزعات جاهلية ومبادىء جاهلية حاربها الاسلام بكل وضوح وحاربها الرسول بكل قوة ، كالعصبية الجاهلية التي تقوم على وحدة الدم أو الوطن او الجنس ، وتمجد هذه العصبية وتبالغ في تقديسها والدفاع عنها والقتال تحت رايتها وتوزيع المجتمع الانساني على اساسها حتى تصبح ديانة وعقيدة ، وتسيطر على العقول والنفوس والارواح والآداب وتكون هي المعرفة للحياة ، ولا شك انها في عمقها ورسوخها وقوتها وشموها تنافس الاديان وتستعبد الانسان ، وتحبط مساعي الانبياء وتحدد الدين الذي جاء ليحكم على الحياة في العبادات والطقوس وتقسم العالم الانساني الى معسكرات متحاربة والأمة التي قال الله عنها : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » في أمم كثيرة .

لماذا يحارب الاسلام هذه العصبيات ؟ !

لقد حارب الرسول هذه العصبية الجاهلية بكل قوة ومن غير هوادة وأنذر منها وسد منافذها ، فلا بقاء للدين العالمي ولا بقاء للأمة الواحدة مع هذه العصبيات ، ومصادر الشريعة

الاسلامية زاخرة بإنكارها وتشنيعها ، والنصوص في ذلك اكثر من ان تستقصى وهذا الذي يعرف بداهة من الاسلام والذي عرف طبيعة الاسلام بل عرف طبيعة الاديان عرف انها لا تسيغ هذه العصبيات ، ومن درس التاريخ متجردا عن الميول والمذاهب السياسية عرف انها لم تزل ولا تزال من اقوى عوامل الهدم والتخريب والافساد والتفريق بين الانسان والانسان ، والمعقول المنتظر من الانسان الذي جاء ليوحد العالم ويجمع النوع الانساني تحت راية واحدة وعلى عقيدة واحدة ويكون مجتمعا جديدا قائما على الدين وعلى الايمان برب العالمين ويبسط الامن والسلام وينشر الحب والوئام بين اعضاء الاسرة الانسانية ويجعلها جسدا واحدا اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، من المعقول جد من هذا الانسان ان يحارب هذه العصبيات بكل وضوح وصراحة ويجعلها كلمة باقية في عقبة لعلهم يرجعون .

اندفاع الشعوب الاسلامية الى احياء هذه العصبيات

ولكن العالم الاسلامي اصبح بعد ما غزته اوروبا سياسيا وثقافيا يخضع لهذه العصبيات الدموية والجنسية والوطنية ويؤمن بها كقضية علمية وحقيقية مقررة وواقع لا مفر منه ، واصبحت شعوبه تندفع اندفاعا غريبا الى احياء هذه

العصبيات التي اماتها الاسلام والتغني بها واحياء شعائرها والافتخار بعهدها الذي تقدم على الاسلام وهو الذي يلح الاسلام في تسميته بالجاهلية وليس في معجمه تعبير اهول وافظع منها ، ويمن القرآن على المسلمين بالخروج عنها ويحثهم على شكر هذه النعمة التي لا نعمة أعظم منها : « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » « بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين » « هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور وان الله بكم لرؤوف رحيم » .

موقف المسلم نحو الجاهلية وشعائرها

والطبيعي من المؤمن ان لا يذكر جاهلية تقادم عهدها او قارب الا بمقت وكراهية وامتعاض واقشعرار ، وهل يذكر السجين المعذب الذي اطلق سراحه ايام اعتقاله وتعذيبه وامتهانه الا وعرته قشعريرة وثارت الذكريات الاليمة القاتمة ! وهل يذكر البرىء من علة شديدة طويلة اشرف منها على الموت ايام سقمه الا وانكشف باله وامتقع لونه ، وهل يذكر الانسان رؤيا فظيعة مفزعة رآها الا وشكر على انها حلم زائل وهم

راحل ، والجاهلية التي تجمع معاني الجهل والضلالة والبعد عن الحقائق وانواع الخطر والمضار في الدنيا والآخرة اعظم من كل ذلك وجديرة بأن يثير ذكراها المقت الشديد وتحث على الشكر على التخلص منها وانقضاء ايامها ولذلك جاء في الصحيح « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ، ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، وان يحب المرأ لا يحبه الا لله ، وان يكره ان يعود الى الكفر كما يكره ان يقذف في النار » .

وقد ذم الله شعائر الجاهلية وابطالها وعظمائها في غير رفق وتحفظ فقال : « وجعلناهم ائمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين» ويقول : « وما امر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود واتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود » .

تمجيد الجاهلية في الاقطار الاسلامية

ولكن كثيرا من الاقطار الاسلامية والشعوب الاسلامية بتأثير الفلسفات الغربية والتفكير الغربي وحده اصبحت تمجد عهدها العتيق الذي سبق الاسلام وحضارته وتقاليده وتحن اليه

وتحرص على احياء شعائره وتخليد عظمائه وأبطاله وملوكه وامجاده كأنه عهدها الذهبي وكأنه نعمة حرمها الاسلام اياها ، وفي ذلك من الجحود والنكران للجميل وقلة تقدير نعمة الاسلام وفضل محمد عليه الصلاة والسلام وتهوين خطب الكفر والوثنية وما اشتملت عليه الجاهلية من خرافات وضلالات وسفاهات ومضحكات ومبكيات ما لا يعقل عن مسلم واع وما يخاف معه الحرمان من نعمة الاسلام وسلب الايمان والتعرض لسخط الله الشديد وقد قال :

« ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .

التحلل في الدين والاخلاق

اضف الى ذلك ما يوجد في العالم الاسلامي اليوم من التهور في الحصول على المادة وايثارها على كل مبدأ وعقيدة وايثار الدنيا على الآخرة والاخلاد الى الارض واتباع الهوى وما تبع ذلك من التفسخ والاستهانة بمحارم الله وشيوع الخمر والفسوق في الطبقات الراقية حتى تكاد تكون هذه الطبقة نسخة واحدة وصورة واحدة في كل بلد اسلامي الا من عصم ربك وقليل ما هم - والتحرر من قيود الاسلام وفرائضه تحررا

تاما حتى كأنها لا صلة لها بالاسلام وشريعته ، وكأنها شريعة منسوخة واسطورة خيالية .

اعظم خطر يواجهه العالم الاسلامي

هذا تصوير العالم الاسلامي الديني والاعتقادي بالاجمال وهي موجة جاهلية تكتسح العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه وهي اعظم موجة واجهها العالم الاسلامي في تاريخه الطويل وهي تفوق كل موجة معارضة عرفها التاريخ الاسلامي سواء في قوتها وفي شمولها وفي تأثيرها في المجتمع الاسلامي ، وتمتاز عنها بأن المنتبهين لهذه الأخيرة قلائل ، والذين ينقطعون الى محاربتها ويجندون لها قواهم ومواهبهم اقل ، فقد حدث الالحاد وظهرت الزندقة بتأثير الفلسفة اليونانية في العهد القديم فوجد من يحاربها بعقله الكبير وذكائه النادر وعلمه الغزير ودراسته الواسعة وشخصيته القوية ، وظهرت الباطنية والملاحدة فوجد من يحاربها بالعلم والحكمة والبرهان وبقى الاسلام محتفظا بنفوذه العقلي ومكانته العلمية ترتد عنه كل موجة عاتية ، وينحسرعن طوده كل فيضان وكل سيل جارف .

ليست المسئلة انحطاط[1] في الاخلاق، وضعف في العبادات وترك للشعائر ، وتقليد للاجانب ، وإن كانت مسائل تستحق

(١) كذا في الاصل ولعل الصواب «مسألة انحطاط».

العناية والجهاد ، ولكن مسألة العالم الاسلامي اليوم اعظم واضخم من كل ذلك ، انها مسألة كفر وإيمان ، انها مسألة بقاء على الاسلام وخلع له ، ان المعركة قائمة بين الفلسفة الغربية اللادينية وبين الاسلام آخر الرسالات ، وبين المادية والشرائع السماوية ، ولعلها آخر معركة قامت بين الدين واللادينية وانها تحدد مصير العالم .

جهاد اليوم

ان جهاد اليوم وان خلافه النبوة وإن اعظم القربات وافضل العبادات ان تقاوم هذه الموجة اللادينية التي تجتاح العالم الاسلامي وتغزو عقوله ومراكزه وان تعاد الثقة المفقودة الى نفوس الشباب والطبقات المثقفة بمبادىء الاسلام وعقائده وحقائقه ونظمه ، وبالرسالة المحمدية ، وان يزال القلق الفكري والاضطراب النفسي اللذان يساوران الشباب المثقف وان يقنعوا بالاسلام عقليا وثقافيا ، وان تحارب المبادىء الجاهلية التي رسخت في النفوس وسيطرت على العقول علميا وعقليا وان يحل محلها المبادىء الاسلامية باقتناع وايمان وحماسة .

لقد مضى علينا قرن كامل واوروبا تغتصب شبابنا وعقولنا وتنبت في عقولنا الشك والالحاد ، والنفاق وعدم الثقة

بالحقائق الايمانية والغيبية والايمان بالفلسفات الجديدة الاقتصادية والسياسية ، ونحن معرضون عن مقاومتها ومعتمدون على ما عندنا من ثراء ، مضربون عن الانتاج الجديد ، معرضون عن فلسفاتها ونظمها ومحاسبتها محاسبة علمية ونقدها وتشريحها كتشريح الاطباء الجراحين ، متعللون بالبحوث السطحية المستعجلة بالزيادة في ثروتنا العلمية القديمة حتى فوجئنا في العصر الاخير بانهيار العالم الاسلامي في الايمان والعقيدة ، وملك زمام الامور في البلاد الاسلامية ، جيل لا يؤمن بمبادىء الاسلام وعقيدته ولا يتحمس لها ولا تربطه بالشعب المسلم المؤمن البرىء الا « القومية الاسلامية » أو المصالح السياسية .

وبدأت هذه العقلية او النفسية اللادينية تتسرب عن طريق الادب والثقافة والصحافة والسياسة الى الجماهير حتى اصبحت الشعوب الاسلامية وفيها كل خير وكل صلاح وكل استعداد وهي من اصلح الكتل البشرية في العالم خاضعة لهذه الطبقة بحكم ثقافتها وذكائها ونفوذها ، واذا بقي هذا الوضع يسرب الالحاد والفساد الى هذه الشعوب والى الطبقات التي تعيش في البادية والقرى وتعمل في المصانع والمزارع وصارت في طريق اللادينية والزندقة . هذا ما وقع في اوروبا وهو واقع

في الشرق اذا جرت الامور مجراها الطبيعي ولم تحل ارادة الله القاهرة .

الى الايمان من جديد

ان العالم الاسلامي في حاجة شديدة الى دعوة اسلامية جديدة وان هتاف الدعاة والعاملين فيه وهدفهم اليوم « الى الايمان من جديد » ولا يكفي الهتاف انه لا بد من تصميم حكيم قبل العمل ، لا بد من تفكير هادىء عميق كيف نرد الطبقة المثقفة التي تحتكر الحياة وتملك الزمام الى الاسلام من جديد وكيف نبعث فيها الايمان والثقة بالاسلام ، وكيف نحررها من رق الفلسفات الغربية والحضارة العصرية ونظرياتها اللادينية .

الحاجة الى المخلصين المتجردين عن الاغراض

إنه في حاجة الى رجال ينقطعون الى هذه الدعوة ويكرسون عليها علمهم ومواهبهم وكفايتهم ، ولا يطمعون في منصب او جاه او وظيفة او حكومة ولا يحملون لأحد حقدا ينفعون ولا ينتفعون ويعطون ولا يأخذون ولا يزاحمون طبقة في شيء تحرص عليه تتهالك حتى لا تكون لها حجة عليهم ولا للشيطان سبيل اليهم ، شعارهم الاخلاص والتجرد عن الشهوات والانانيات والعصبيات .

الحاجة الى منظمات علمية

ان العالم الاسلامي في حاجة الى منظمات علمية تهدف الى انتاج الادب الاسلامي القوي الجديد الذي يعيد الشباب المثقف الى الاسلام بمعناه الواسع من جديد ويحررهم من رق الفلسفات الغربية التي آمن بها كثير منهم بوعي ودراسة واكثرهم بتقليد وتسليم ، ويقيم في عقولهم اسس الاسلام من جديد ، ويغذي عقولهم وقلوبهم ، انه في حاجة الى رجال في كل ناحية من نواحي عالم الاسلام عاكفين على هذا الجهاد .

انني لم أكن في فترة من فترات حياتي ممن يقول بفصل الدين عن السياسة وممن يفسر الدين تفسيرا لا يتصادم مع وضع ـ مهما انحرف وشذ عن الاسلام ـ وينسجم مع كل مجتمع ، ولا ممن يعتبر السياسة « الشجرة الملعونة في القرآن » بل أنا في مقدمة من يدعو الى ايجاد الوعي السياسي الصحيح في الشعوب الاسلامية وايجاد القيادة الصالحة ، وممن يعتقد ان المجتمع الديني لا يقوم الا بالملك الديني الصحيح والحكم الصالح المؤسس على أسس الاسلام ولا أزال ادعو الى ذلك حتى القى الله ، انما المسألة مسألة ترتيب وتقديم وتأخير وما تقتضيه حكمة الدين وفقهه ، وما تفرضه الاوضاع .

تجارب الماضي

اننا بذلنا جهودنا ومواهبنا وما أوتينا من فرص ووسائل في حركات سياسية وتنظيمية وكان كل ذلك على اساس ان الشعب مؤمن وان من يقوده يملك زمامه ـ وهي الطبقة المثقفة لا محالة مؤمن مقتنع بالاسلام وعقيدته وبمبادئه متحمس للاسلام وعلوه ونفاذ حدوده ، واذا الامر بالضد ، واذا الشعب قد ضعف في ايمانه وانحط في اخلاقه من حيث لم نشعر ولم يشعر ، واذا الطبقة المثقفة ذابت في اكثر افرادها العقيدة الاسلامية وتبخرت بتأثير فلسفات الغرب وسياسته ونفوذه ، وكثير من افرادها ثائر على العقيدة الاسلامية مؤمن بالفلسفات الغربية وما جاءت به من عقائد وأفكار تصادم الدين وينتصر لها ويتحمس لها ويحرص على نشرها وتنفيذها ويريد ان ينظم الحياة على اساسها وفي ضوئها ، ويصل بالشعب اليها ، فمنهم مسرع متهور ، ومنهم حكيم متدرج ، ومنهم منفذ بالقوة يفرضها على الشعب فرضا ، ومنهم هادىء يزينها للشعب ، والهدف واحد ولغاية واحدة .

اقسام رجال الدين في معاملة « المثقفين »

ورجال الدين ـ ان صح هذا التعبير اذ ليس في الاسلام

الكهنوت والطبقة الدينية الممتازة ـ في ذلك فريقان ، فريق يحارب هذه الطبقة حربا شعواء ويكفرها ويبتعد عنها ، ويعرض عن تتبع اسباب هذا الاتجاه اللاديني ، وعن ثقافتها ، ولا يعنى بأصلاح الاحوال وتغيير هذا الاتجاه المعارض والمحاربة للاسلام بالاختلاط بها وازالة الوحشة والنفور عن الدين وعن رجال الدين ، وتشجيع ما عندها من خير وذرة إيمان وتغذيتها بالأدب الاسلامي الصالح المؤثر ، وبالزهد فيما عندها من حياة او مال وقوة وسلطان ، وتقديم النصح الخالص والتوجيه الحكيم .

وفريق يتعاون معها ويساهمها في المنافع والخيرات وينتفع بها في دنياه من غير ان ينفعها في دينها ، فلا دعوة ولا عقيدة ولا غيرة على الدين ، ولا حرص على الاصلاح ، ولا رسالة لها في هذا القرب والتعاون .

والفريق الثالث الذي يتألم بهذا الوضع ويتوجع له ويعترف بأن هذه الطبقة مريضة صالحة للتداوي مستعدة للشفاء ويتقدم اليها بالدعوة الرفيقة والرسالة الحكيمة والنصيحة الخالصة يكاد يكون مفقودا ، فلا صلة لهذه الطبقة بالدين وبالجو الديني تعيش في عزلة عنه وفي وحشة منه ، ولا تزال الا بعدا عن الدين وازدراء بكل ما يتصل به ويزيدها

الفريق الذي يحاربها حربا شعواء لا هوادة فيها ، والفريق الذي يتزعم الدين ويريد ان ينزع منها الحكم وينافسها في الجاه والمنصب لا يزيدها الفريقان الا بغضا للدين واشفاقا منه ، والانسان مفطور على بعض من ينافسه في دنياه ، اذا كان لا يؤمن الا بالدنيا ، وينتزع منه الحكم والسلطان اذا كان لا يعيش الا على الحكم والسلطان ، ويساهمه في مادته وشهواته اذا كان لا يعرف الا المادة والشهوات .

الفريق المطلوب للبعث الاسلامي الجديد

والاقطار الاسلامية اليوم بحاجة الى فريق يتجرد عن المطامع ويخلص للدعوة ويبتعد عن كل ما يوهم بأن همه الدنيا والمادة والتغلب على الحكومة لنفسه او عشيرته او حزبه ، يحل العقد النفسية والعقلية التي احدثتها الثقافة الغربية او اخطاء « رجال الدين » او سوء التفاهم او قلة الدراسة والابتعاد عن الاسلام وجوه ، بالمقابلات والصداقات والمحادثات والمراسلات والرحلات وبالادب الاسلامي الصالح المؤثر وبالروابط الشخصية ، وبالنزاهة وعلو الأخلاق وقوة الشخصية والزهد في حطام الدنيا والعزوف عن الشهوات وتمثيل اخلاق الأنبياء وخلفائهم .

من التاريخ الماضي

هذا هو الفريق الذي خدم الاسلام في كل عصر، واليه يرجع الفضل في تغيير اتجاه دولة بني امية وظهور خامس خلفاء الراشدين «عمر بن عبد العزيز» ونجاحه، وقد اعيد هذا التاريخ في عصر الملك المغولي الاكبر جلال الدين اكبر الذي ثار على الاسلام وصمم على تحويل هذه القارة الاسلامية الواسعة (الهند) التي عاشت في الحكم الاسلامي اربعة قرون جاهلية برهمية، ولكن بفضل هذه الدعوة الحكيمة وبظهور داعية اسلامي مجدد وشخصية اسلامية حكيمة اخلصت للاسلام واحسنت فقهه وفقه الدعوة، وبتأثير تلاميذه عادت الهند الى الاسلام اقوى وافضل، وتوالى على عرش اكبر ملوك يتدرجون في الصلاح وحب الاسلام حتى جاء على العرش ملك يتجمل تاريخ الاسلام وتاريخ الاصلاح بذكره وحديثه.

فريضة لا تحتمل التأخير

انها فريضة لا تحتمل التأخير ولا تأخير يوم واحد، فالعالم الاسلامي يواجه اليوم موجة ردة عنيفة منتشرة في اعز ابنائه واقوى اجزائه، انها ثورة على اعز ما يملك من عقيدة وخلق

وقيم ، ولا بقاء للعالم الاسلامي بعد ضياع هذه الثروة التي خلفها الرسول وتوارثتها الاجيال وجاهد في سبيلها ابطال الاسلام .

فليكن الموضوع موضع دراسة واهتمام لجميع من يهمهم امر الاسلام .

توزيع
مكتبة ابن حجر
مكة المكرمة